تشبّثاً بالحلم الحضاري...

جبرا ابراهيم جبرا

عزيزي الدكتور سهيل،

لقد طرحت قضية كبيرة وخطيرة في زمن لحقنا منه آلام وجراحات، وفقدنا فيه أرضاً وشهداء وآمالاً وأحباء. لكن يدهشني أنك تتوقع مني ان أستطيع الإجابة بسرعة عن اسئلة تثيرها هذه القضية بقينا قرابة الاربعين عاماً في غمرة منها: تفكيراً وتمرداً، وصراخاً، وعذاباً.

لست أدري كيف يتسنى للمثقفين الذين كان لهم شرف الريادة في تطلّعات الأمة، الذهنية، والاجتماعية والتاريخية، وفي تطلعاتها السياسية والنضالية ـ كيف يتسنى لهم ان يعيدوا تقييم دورهم بأسطر قليلة يكتبها الواحد منهم في هذه الظروف العاتية جواباً عن سؤال عليه إن يسلّمه للبريد في غضون يوم او يومين؟

الثقافة العربية الجديدة لا يمكن أن نحقق، او نخطط، لها مساراً ارتجالاً بفقرتين من كلام حلو أو غضوب. علينا ان نختلي بأنفسنا، ونقارع عقلنا، ونعيد النظر في حضارتنا بأجمعها، ونقضي في هذه المهمة أشهراً كثيرة، نتقرّى فيها الأبعاد والنتائج التي تحققت ـ أو لم تتحقق ـ لكل مسعى عربي في نصف القرن الأخير. وهذه مهمة تتطلب أيضاً، فضلاً عن الوقت، كثيراً من وضوح الذهن وصفاء التفكير والسيطرة على الذات (في زمن يكاد يخلو منها جميعاً) لكي نأتي بفكر ربما لم نفلح بالإتيان بمثله فيما مضى.

ومع ذلك فإنني أرى في هذه اللحظة، وعفو الخاطر، أن الدور الذي ينبغي ان تضطلع به الثقافة العربية للاسهام في الخروج من الهزيمة لا يختلف في جوهره ومداه عن الدور الذي حاول عدد كبير من مثقفي الأمة من الخليج الى المحيط ان يعطوه لهذه الثقافة التي وصلوها بعرقهم ودمائهم، بعشقهم وعبقريتهم، بخيالاتهم وأحلامهم كلها.

غير أن الأوضاع السياسية التي نشأت في اثناء ذلك في اثنين وعشرين قطراً عربياً (اللهمّ زد وبارك!) راحت تجزّىء، بل تهشّم، وباستمرار، كل مسعى يقوم به المثقفون، وراحت بهذه الصيغة او تلك تتضافر باستمرار عنيد لتبديد الحلم العربي هذا، بحيث رأيناه يخيب عام ١٩٤٨، ورأيناه يخيب مرة أخرى عام ١٩٦٧، ورأيناه يخيب مرة ثالثة عام ١٩٨٢ ـ لولا فئة رائعة استطاعت ان تحمي هذا الحلم بدمها، ووقفت في بيروت مانعاً صخرياً غالبت به شراسة الصهيونية لأكثر من خمسة وسبعين يوماً على نحو عجزت عنه أنظمة تقود أمة قوامها ١٥٠ مليون نسمة.

وما نراه اليوم من مواقف اللامبالاة من معظم هذه الانظمة بملايينها البشرية (دع عنك مواردها) مرة أخرى تجاه العراق في وقفته البطولية الصامدة في سبيل الابقاء على تماسك هذه الأمة وتوقها الحضاري، يدلّل مرة أخرى على اغفالها ـ او تغافلها ـ جوراً وجنوناً عن كل ما يقوله ويسعى الى تحديده فكراً مثقفو الأمة العربية في كل مكان.

لذا، يخيّل إليّ ان الفجوة الكبيرة القائمة بين رؤية المثقفين وبين نوازع أصحاب السلطة، ستجعل دور الثقافة يصاب بمثل الاحباط الذي أصيب به فيما مضى، لولا أنه يبقى فاعلاً في دواخل المجتمع عن وعي او لا وعي، ولولا أن هناك أملاً في ان تجعل ماسي الأمة وفواجعها من هذه الثقافة شيئاً اكثر امتلاءً بالحياة وأشدّ إصراراً عليها ـ شيئاً يكون في توثّبه رفض حاسم لليأس الذي يغري الآن الأمة ويهدّدها في مستقبلها، ما دام ثمة فئة رائعة تتشبّث بحلمها كتلك التي قاومت في بيروت بدمها وحلمها، وما دام ثمة من يقف شامخاً على البوابة الشرقية للوطن العربي ببطولة اسطورية تعيد الثقة الى النفس العربية وتعيد الثقة بالتالي الى حلمها الحضاري الذي لن تتنازل عنه.

بغداد